صورة وصفية لصحفي

قضى «م» سنةً كاملة يعمل في سكون في الصحيفة التي التحق بها، ويؤدي الواجب الذي وكله إليه رئيسه بإخلاص ودقة، وكان واجبًا شاقًّا، ولكنه كان يجد فيه مَلهاة عن هموم الحياة. وعرف له رئيس التحرير فضلَه فكان لا يفتأ يُثني عليه ويشجِّعه ويبلِّغه حُسنَ رأي الناس فيه وحمدَهم مجهوده، وكان يُخجِله أن يسمع هذا المدح ولا يدري بماذا يجيب فيقطِّب — وهو يريد أن يبتسم — ويتلفت يمينًا وشمالًا كأنما يبحث عن نافذة يثب منها. وطلب منه رئيس التحرير يومًا صورته فرِيع المسكين وقال: «صورتي؟»

قال: «نعم صورتك. نحن في ديسمبر كما تعلم.»

قال وقد زادت حيرته: «أعلم هذا، ولكن ما العلاقة بين كوننا في ديسمبر وبين صورتي؟»

فابتسم رئيسه وقال: «قد اعتزمتُ أن أعطيك جوازَ ركوب مجاني للترام. هذا ما أستطيع أن أكافئك به الآن، وقد كان بودي أن أزيد مرتبك، ولكن لا أرى هذا ميسورًا في الوقت الحاضر. وفي مرجوي أن أستطيع بعد قليل.»

ولبث أيامًا يخجل أن يُبرِز الجواز أو ينبئ عمال الترام أنه «أبونيه» ويؤدي أَجْرَ الركوب، ذلك أنه أحس بشيء من الحرج؛ لأن الجواز مجاني، وخُيِّل إليه لغير ما سبب معقول أن «الأبونيه» منحةٌ من الشركة، فلا يبعد أن يخطر لها يومًا أن تسترده، وتجسَّم له وهمُه فكان يتصور أن العامل جاءه يطلب ثمن التذكرة، فقال له «أبونيه» فطلب رؤية «الأبونيه» وفتحه ثم طواه ودسَّه في جيبه وقال «تذكرة من فضلك»، ومع اطمئنانه إلى استحالة هذا، صار يستدرج إخوانه الذين يحملون مثل جوازه ليركبوا معه. أو على الأصح يركب معهم وإن كان طريقهم غير طريقه ليطمئن ويتشجَّع، حتى أَلِف هذه

الحالة الجديدة. وعلى أنه مع ذلك ظل زمنًا كلما مر به عامل الترام وهو راكب، يتوخَّى أن يكون سلوكه وهيئته على خير ما ينبغي. فإذا كان واضعًا رجلًا على رِجلٍ أنزلها، وإذا كان يتكلم صمت، وإذا كان ناظرًا إلى اليمين أو الشمال رمى بعينه إلى الأمام كأنه تلميذ لمحه المدرس يتشاغل عن الدرس.

وكتب يومًا مقالًا ودفعه إلى رئيسه فما راعه في اليوم الثاني إلا رؤية المقال في صدر الجريدة وفي ذيله اسمه. فألقى القلم وأسرع إلى رئيسه يؤكِّد له أنه لم يذيِّل المقال باسمه، وأن المسئول سواه عن هذا الخطأ أو التصرف المعيب.

فقال رئيسه: «ألم يخطر لك أن من الغبن أن جمهور القراء يجهل اسم كاتب مقالاتك؟»

فدهش واستحيا أن يخالف رئيسه لا جبنًا؛ بل لأنه لا يحب أن يتهمه رئيسه بقلة الفَهْم، ومضى الرئيس في كلامه فقال: «لقد وضعت اسمك في آخر المقال حتى من غير أن أستأذنك.» فتمتم «العفو. أستغفر الله.»

«لأني رأيت أن من الواجب إنصافك. إن أسلوبك فيه فن وقوة لا أرى لهما مشبهًا في كتابات غيرك. ومن العدل أن يعرف القراء أنك أنت صاحب هذا الفن الرائع ومبتكر هذا الأسلوب المحكم.»

فوجد قوة كافية للاعتراض فقال: «ولكني لا أعرف أن لي أسلوبًا ...»

فقاطعه رئيسه: «إن هذا تواضع يزيد قدرك.»

فتحامل على نفسه وقال: «أؤكد لك أني صادق.» «لا شك في ذلك.»

«ليس لي أسلوب أو فن، وليس في قولي هذا شيء من التواضع إنها الحقيقة.»

قال الرئيس «إذن هو كبر أن يكون بك كبر.»

قال: «كلَّا. كلَّا. ولا هذا.»

قال الرئيس وقد ضجر: «إذن أعصابك متعبة استرح بضعة أيام.» ولكنه لم يسترح، وحاول بعد هذا الحديث أن يكتب فصار يمزق ورقة بعد أخرى ولا يزيد على سطر في واحدة منها. فوضع القلم يائسًا وقال ما أظنني أستطيع أن أكتب شيئًا بعد هذا، وراح يعجب كيف كان يؤاتيه الكلام وكيف صار يستعصي عليه الآن، أسلوب؟ فن؟ ماذا يعني؟ إن كل ما يعرفه أنه كان يتناول القلم ويُجريه على الورقة، وكانت الألفاظ تُسعِفه ولم يكن يجد عناء في تخيرها، بل لم يكن يتخير أو ينتقي، فما له الآن لا يقدر أن يخُطَّ حرفًا؟

وتناول طائفة من أعداد الجريدة وجعل يقرأ مقالاته من جديد لعله يقع على ما فيها من الفن ويتبين ذلك الأسلوب الذي يذكرونه، فلم يهتدِ إلى أسلوب أو فن، وألقى الصحف ونهض عن المكتب واستأذن في الخروج، وقد أيقن أن مستقبله في الصحافة قد قُضي عليه.

وبعد بضعة أسابيع دعاه رئيس التحرير وطلب منه أن يتحرَّى مسألة من المسائل. فقال: «أرجو أن تدع لي مفاتيح المكتبة.»

فذُهِل رئيس التحرير وقال: «المكتبة؟ أو تحسَبُ أن هذا مما يوجد في الكتب؟»

فسأل: «أين إذن أجده؟»

قال: «لو أمهلتني لما أحوجتني إلى هذا.» وشرح له الموضوع ثم قال: «فعليك الآن أن تقابل وزير الخارجية في مكتبه.»

فسأل: «متى أستطيع ذلك؟»

فضجر الرئيس وقال: «لا تكن طفلًا يا «م» ...»

وفي صباح اليوم التالي ركب سيارة حملته إلى الوزارة المقصودة، فلما دخل لم يدرِ إلى أين يذهب ولا إلى أي ناحية يقصد، ووقف لحظة يدير عينه في البناء ويرجو أن يلقى أحدًا تكون له به معرفة، ولما طال الأمر راح يتمشَّى، ثم خشي أن يضيع الوقت فعاد إلى الجندي الواقف بباب الوزارة وقال: هل تستطيع أن تدلني على غرفة صاحب المعالي الوزير؟

فصعَّد الجندي فيه نظره وصوَّبه ثم قال: «ادخل من هنا وامشِ في خط مستقيم.»

ففعل ولم يزل داخلًا حتى صار في حجرة واسعة فاخرة الأثاث، ولكنه لم يجد فيها لا مكتبًا ولا وزيرًا والتفت فرأى بابًا مواربًا فمد عنقه وأطل منه فرأى مكتبًا وليس أمامه إنسان، فشجَّعه خُلو المكان فالتفت وراءه فلم يجد أحدًا، فتقدَّم خطوة وأطل مرة أخرى فأخذت عينه ما أيقن معه أن الغرفة غرفة الوزير، ولكن الشك خامره. إذن أين الوزير والساعة الآن الحادية عشرة؟ وكيف يخلو المكان من حُجاب وشرطة وموظفين قائمين في خدمته؟ كلَّا. بل أكبر الظن أن الوزير في مكان آخر. ورجع فالتقى بشرطي فسأله. فقال بل هي الغرفة وهنا (وأشار إلى غرفة صغيرة) سكرتير الوزير. فحمل بطاقته مستأذنًا في الدخول عليه وخطر له وهو يناوله البطاقة أن مخبري الصحف مساكين؛ لأنه ظنهم لا يدخلون على موظف إلا إذا بعثوا إليه بطاقاتهم مقدمًا. وأُذِن له في الدخول

فحيَّاه بلسانه ورفع به بالسلام فلم يزد السكرتير على أن هز رأسه، وقال: نعم. قال هل أستطيع أن أقابل معالي الوزير؟

قال السكرتير: «إنه مريض.»

فقال صاحبنا: «مريض؟ لا بأس عليه. أرجو أن تبلغه سلامي.» فابتسم السكرتير وخرج «م». وقد سرَّه أن الوزير مريض وأنه نجا من لقائه أكثر مما ساءه أن عاد بلا جدوى.

وخُيِّل له أن رئيس التحرير يدرك ما انتابه وأنه يتعمد أن يصرفه عن الكتابة ويكلِّفه مهمات من هذا القبيل، فقد بعث به في اليوم التالي إلى وزير الحقانية، فخرج ولم يركب في هذه المرة سيارة؛ لأنه تفقَّد ما في جيبه فاستقلَّه، ولم يشأ أن يُرهِق الجريدة بكثرة النفقات، وخجل أن يطلب أجرة الركوب مقدمًا. ولم يكن قد احتاج من قبل أن يذهب إلى وزارة من الوزارات، فسأل بعض مَن لقيهم في الطريق فدلُّوه، وكان وهو سائر يفكر في ثقل هذه التكاليف وفي هذه الضرورات المتعبة، وانتقل من هذا إلى التفكير في الموضوع الذي يقصد إلى الوزير من أجله، فلم يرَ أن المسألة تحتاج إلى استفهام أو لقاء وزير، وكيف يبدأ الكلام؟ وماذا يفعل إذا رفض الوزير أن يجيب؟ ولماذا لا يذهب رئيس التحرير بنفسه؟

وكان في أثناء ذلك قد دخل من باب وزارة وقطع الفناء ووصل إلى السلَّم فصعد وهو لا يزال يحاور نفسه، وسأل عن غرفة السكرتير فسار به شرطي إليها، فأعرب له عن رغبته في مقابلة الوزير، وكان السكرتير يعرفه فأكرمه ورحَّب به وطلب له قهوة، وبعد نحو ساعة مضى به إلى باب فتحه وأشار إليه أن يدخل.

فقال الوزير: «أهلًا وسهلًا ... زيارة نادرة، تفضل.»

فجلس على حرف الكرسي وافترَّ فمُه عن ابتسامة بلهاء، وكان يدرك أن عليه أن يتكلم، ولكن لسانه خانه كأنما قد استُلَّ منه، ولم يكن ينقصه أن يحدث له هذا ليزيد ارتباكه، وكان الوزير دمثًا رضيَّ الخُلق، فابتسم وقال له وهو يميل إليه: أتشرب القهوة؟

– كلَّا!

– إذن خذ سيجارة.

– ولا هذه!

– ألا تدخن؟

فأومأ المسكين برأسه أن نعم، فقال الوزير «إذن يجب أن تدخِّن!»

وقدَّم له العُلبة فأخذ منها واحدة وأسقط واحدة أخرى على المكتب واستطاع فضلًا عن ذلك أن يطير بكمِّه بضع أوراق، وانحنى يريد أن يلتقطها ويعيدها إلى مكانها، فصدم المكتب برأسه ونزل الطربوش إلى أذنيه، فضحك الوزير وقال: «لا بأس، والآن ماذا أستطيع أن أفعل لك؟»

فجرَّ صاحبنا الكرسي ودنا به من المكتب وتنحنح ثم استطاع بجهد أن يفضي بالموضوع، وكان الوزير في أثناء ذلك يقطِّب حاجبيه أو يرفعهما أو يستعيده بعض ما يسمع منه، وهو مستغرب، وصاحبنا لا يفطن إلى آيات الدهشة في وجهه ولا يدرك أمارات العجب ولا يلتفت إلى دلائل الملل، وأخيرًا قال: «وقد جئت راجيًا أن تتفضلوا عليَّ ببيان وافٍ على قدر المستطاع في هذا الموضوع.»

فقال الوزير ولم يخفِ امتعاضه: «ولكن هذا من اختصاص وزير الحقانية!»

ولو كان صاحبنا حاضر الذهن لفطن إلى الغلط الذي وقع فيه ولاستطاع أن يُحسِن التخلُّص. ولكن لسانه سبق رأسه فقال: «ولهذا جئت لمعاليكم.»

قال الوزير وقد اشتد امتعاضه: «ولكني لستُ وزير الحقانية»، فبُهِت المسكين، ووقف لسانه في حلقه، ودارت به الأرض، ورثي الوزير له وأدركه العطف عليه، فلاطفه وقال: «لا بأس، الغلط مردود (وضحك) لم يَضِع الوقتُ، يمكنك أن تقصد إلى وزير الحقانية الآن، لقد سرَّتني زيارتك على كل حال وأرجو أن أراك مرة أخرى، نهارك سعيد.»

وخرج «م» وهو لا يرى ولا يفهم شيئًا. ماذا عسى أن يقول عنه رئيس التحرير أو أي إنسان حين يعلم أنه يخلط بين وزير الحقانية ووزير ... أيُّ وزارة هذه التي كان فيها؟ حتى هذا لا يعرفه أو هل يجرؤ الآن أن يستخبر أحدًا؟ وهل يجرؤ أن يعود إلى جريدته جاهلًا أيَّ وزير قابل، فوق ما كان من جهله وتخليطه.

ولم يكن يخفى عليه أن الحل الوحيد هو أن يقصد إلى الحقانية ويقابل وزيرها. ولكن اضطرابه بلغ مبلغًا احتاج معه إلى علاج، فقصد إلى قهوة قريبة وأُلهِم أن يطلب كأسًا من الويسكي جرعها صرفًا، ولم يلبث أن سكنت نفسه قليلًا، فشرب كأسًا ثانية وثالثة، ثم قام إلى بغيته وبه من الثقة بالنفس ما لا يذكر أنه أحسه من قبل، ورأى من الأمانة أن يكاشف رئيس التحرير بما كان من غفلته. فضحك حتى كاد يقع من فوق كرسيه وقال: يا صاحبي. إنك كاتب لبق يسعك ما لا يسع فرقة بأسرها من الكتاب حين تجلس إلى مكتبك، ولكن حين تلقى الناس لا تعود صالحًا لشيء أو قادرًا على شيء. فاذهب إلى مكتبك ولا تزايله فما نستطيع أن نخلقك خلقًا جديدًا.